

التأسيس الوجودي لفلسفة الاشراف عند السهروردي

The existential foundation of the philosophy of radiance at Suhrawardi

مولود اخضر

¹ جامعة الجلفة (الجزائر)، molodabdraof@gmail.com

تاريخ القبول: 2025/03/14

تاريخ الإستلام: 2025/01/22

ملخص:

يستكشف هذا المقال وجهة نظر السهروردي حول فلسفة الوجود ودورها في فلسفته الشرقية. في سلسلة وجودية تمتد من النور الأول إلى النور الثاني وحتى إلى عالم الأجسام ، تبحث الورقة عن موارد تستند إلى ضوء الأنوار السهروردي وارتباطه بالضوء الأول.

الكلمات المفتاحية : الوجود-الاشراق- السهروردي

Abstract:

This article explores Suhrawardi's view on existence philosophy and its role in his Eastern philosophy. In an existential series that extends from the first to the second light and even down to the world of bodies, the paper looks for resources based on the suhrawardi's light of lights and its link with the first light.

Keyword : Presence -radiance -Suhrawardi

١. مقدمة

أن ظلت الفلسفة الإسلامية تحاول الخروج من مازق العقل اليوناني بكل مدارس واتجاهاته وذلك من أجل التوفيق بينما حاوه التراث الإسلامي الضخم سواء في جانبه ديني والعقد أو في ما أنتجه العقل في بداية الإحتكاك بالتراث اليوناني الغريب فكانت حاله من التزاوج والتداخل بينهما ما أفرز مدارس مدارس فلسفية إسلامية ذات مرجعيات يونانية خالصة تجسدت ابتداء مع الكندي والفارابي وابن سينا. هؤلاء كان لهم التبعية المطلقة في تأسيس النظريات الفلسفية الإسلامية الى أصلها اليوناني جاعلين من أفلاطون وأرسطو أعظم ما وصل اليه العقل البشري. في حين نجد رفضا تاما لمعجزه هؤلاء وتبيان لأخطائهم مع الغزالي حينما رفض ونقد ما قدمه أرسطو، فكان تهافت الفلاسفة كبير في اعتقاد الغزالي. فمع هذا حدثت نقطة إنحراف في مسار الفكر الإسلامي حين نقد أفكار الفلاسفة اليونان وبين تهافتهم، فهو لم ينتقص من الفلسفة في ذاتها. وجاء بعده السهروردي الذي كان معتقدا في أفلاطون أيام اعتقاد فجعله المفكرين والفلاسفة على مر العصور إضافة إلى العديد من مفكري الفرس القدامى الآخرين السابقين حتى على أفلاطون لكنه بدوره نقد ما قدمه أرسطو في منطقته في محاولة لتفنيد هذا المنطق العقلي وتأسيس لمنطق آخر بديل نوراني اشراقي يحوي في جوانبه البناء الوجودي والبناء الإبتيمولوجي. في المنهج العقل الحسي الذي اكتمل مع أرسطو لا يوصل الى الحقيقة والتي هي نور الانوار عند السهروردي اي معرفه الله جل جلاله. لذلك ارتائنا ان نقدم اشكالية البحث على النحو الاتي: ما هي ماهية النور الذي تكلم عنه السهروردي؟ وكيف أسس لأنطولوجيا نورانية؟

تعريف النور: النور نقيض الظلام.

"وأنها من حيث موضوعيتها مبدأ للوجود ينتظمه بأسره من أعلى قم' في بنائه الى أن تتلاشى الأشعة النورية على هيئته برازخ ظلمانية، أي أن النور مبدأ وجودي، وأنه المبدأ الأوحده، وأما الظلام فهو نقص في النورية".¹ وجاء في حكمه الاشراق: "ان كان في الوجود ما لا يحتاج إلى تعريفه وشرحه فهو الظاهر، ولا شيء أظهر من النور، فلا شيء أغنى منه على التعريف".² و"الغني هو ما لا يتوقف ذاته ولا كمال له على غيره، والفقيير ما يتوقف منه على غيره ذاته أو كمال له".³ ويقول في كتابه هياكل النور: "يا قيوم أيدنا بالنور وثبتنا على النور وأحشرنا إلى النور. واجعل منتهى مطالبنا رضاك".⁴

من هنا نجد تداخلا جليا بين مفهوم النور والاشراق، فقد أسس السهروردي "مذهب الاشراق" وألف كتابه المشهور "حكمه الاشراق" فتكلم في فصله الثاني عن علم الأنوار ونور الأنوار لأنه هو مبدأ الوجود. "وكلما إنحدر الوجود من مستوى المصدر الأعلى الى ما تحته انخفضت درجة النور، وعندما نصل إلى عالم الأجسام نجد النور يقل، ثم يتلاشى تماما في عالم الظلام".⁵

ولكي نفهم منذ البداية مقصد مؤلفات السهروردي فلا بد لنا أن ننتبه إلى الفكرة المبطننة التي تشير إليها تسميته لكتابه سابق الذكر حكمه الاشراق، وهي فكرة حكمه لدنية مشرقية، سيتابعها بتصميم واضح كإحياء لحكمة فارس القديمة، والشخصيات العظيمة التي تتحكم في سير المذهب.⁶ "وما ذكرته من علم الأنوار وجميع ما يبتنى عليه وغيره، سيساعدني عليه كل من سلك سبيل الله عز وجل وهو ذوق إمام الحكمة ورئيسها أفلاطون صاحب الأيد والنور، وكذا من قبله من زمان والد الحكماء هرمس الى زمانه من عظماء الحكماء وأساطين الحكمة مثل أمباذقلس وفيثاغورس وغيرهما...، وعلى هذا يبتنى قاعدة الشرق في النور والظلمة التي كانت طريقة حكماء الفرس. مثل جاماسف وفرشا وشتروبووزر جمهرومن قبلهم وهي ليست قاعدة كفار المجوس والحداد ماني وما يفضي الى الشرك بالله تعالى وتزده".⁷

فأسس بناءه النوراني على فلسفة فارس القديمة متمثلة في مجموعة من الحكماء الإلهيين إضافه إلى من هذا حذوهم من فلاسفة اليونان الذين اتصفوا بصفة النور الذي يرجع في أصله إلى الله.

"وقد خصص السهروردي معظم مؤلفاته لعلم الأنوار وتخطيط العالم العقلي النوراني، تناوله بشكل أساسي في كتابه حكمة الاشراق خاصة في القسم الثاني....، كما تعرض له أيضا في كتابه "هياكل النور" الذي يتألف من سبعة هياكل يرمز كل هيكل منها لإحدى مسالك المعرفة الإنسانية، حيث يتناول الحواس الخمسة الظاهرة والمتخيلة والقوه الناطقة، وكيف أن هذه المسالك هي في الحقيقة معابد تقودنا تدريجيا الى عالم الأنوار، وكيف أن القوه الناطقة وهي الهيكل السابع تعتبر المدخل الى العالم الأعلى".⁸

فكانت أفكاره عن النور مبنوثة في العديد من مؤلفاته حتى يستطيع الباحث أن يقف على جوهرها وأن يصل إلى الحقيقة المطلقة التي تكلم عنها كاملة، كان لزاما عليه أن يمر عليها جميعا، فنجد العديد من مؤلفاته التي نسجها على منوال المشائية مثل "التلوينات اللوحية والعرشية" و"المقاومات والألواح العمادية" و"المعارج" و"المشارع والمطارات" و"قصة الغربة الغربية" وغيرها.

ان الاشراق كمعنى هو الكشف وظهور الأنوار الإلهية في قلب الانسان العارف ويكون للإشراق طرق كالتهجلي والمشاهدة والذوق والمكاشفة، وما لهما من أثر في القلب والروح، يقصد بالتهجلي ما ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب، والذوق أول التجليات، وهو حدوث الالهامات من الله للصوفي بطريق مباشر وعلى باطنه أو قلبه.⁹ ويبين السهروردي سبب تسميته للحكمة بالإشراقية لأن هذه الحكمة المفضية الى الحق تجعل الحق غاية في الصفاء والوضوح والظهور، ولا شيء أوضح وأظهر من النور، ولا شيء أغنى منه عن التعريف، فكل شيء يمكن أن يقسم الى نور في ذاته، وإلى ما ليس نورا في ذاته أي ظلمة.¹⁰

- في المذهب الاشراقي تقوم به بعض الأسس التي منها: أن النور مبدأ الفيض ثم تكلمنا على أن ما ليس بنور أو عدم النور المحض فهو ظلام، وتوصلنا الى أن النور والظلام لفظان اشراقيان لهما مدلول وجودي، فالنور يعني الوجود والظلام يعني اللاوجود. والنور لا يخضع للتعريف المنطقي فهو أظهر من أن يعرف، والظلام عدم النور، ويتصف النور من حيث الشدة والضعف بالكمال والنقص أو بالغنى والفقر".¹¹

"ويفيض نور الأنوار (الله) على كل ما تحته من الأنوار القاهرة (عقول الأفلاك) والأنوار المجردة (النفوس الإنسانية). وهي بالتالي يفيض كل منها على ما يليها العالي على السافل. وفي العديد من المواضع يستبدل السهروردي الاشراق والمشاهدة بفعلي العشق والقهر، فالأول به ينتظم الله الوجود صعودا، والثاني ينتظمه نزولا والنفوس منطوية في قهر نورية العقول".¹²

-تقسيم الأنوار وعلاقتها بنور الأنوار :

لما كان النور هو نقيض الظلام وكان هو المبدأ الأول للوجود فبه ينتظم بأسره من أعلى قمة في هذا البناء النوراني الى أن تتلاشى الأشعة النورية على هيئته برازخ ظلمانيه لذلك فهذان المبدآن النور والظلمة ليس مصطرعان كما قدمه المانويون فالحقيقه هنا تتخذ من فكره النور أساسا لها. كما يقوم الوجود في المذاهب المادية على اعتبار المادة أساسا للحقيقة الموضوعية، وعلى تحديد النفس كأساس للحقيقة في المذهب المثالي الذاتي، وإعتبار فكرة الواحد في المذهب المثالي المتعالي واتحاد الروح والماده في الفلسفة الوجودية المعتدلة الأرسطية، فكذلك الحقيقة هنا حقيقه هي أن النور أساس لها ومبدأ مشيدا للوجود.¹³

"فالنور في الفلسفة السهروردية هو طاقه تبث الوجود في الكائنات، فما الوجود إلا إشراق إلهي، أو هو فيض من نور الله، ولذلك ألحق السهروردي النور بألفاظه وعباراته، منها الأسماء والأفعال (عرش النور)، (غواشي نوره)، (أضاءت)، (طلعت شمس)، و(يا نور كل نور)، و(لوامع بركاتك)، و(أنوار خيراتك)، و(المتجلي بنورك)، (استشرق)".¹⁴

يقول السهروردي: "فليكن أن النور هو الظاهر في حقيقته نفسه المظهر لغيره بذاته وهو في نفسه من كل ما يكون الظهور زائداً على حقيقته، والأنوار العارضة أيضاً ليس ظهورها لأمر زائد عليها فتكون في نفسها خفية، بل ظهورها إنما هو الحقيقة نفسها، وليس أن النور يحصل ثم يلزمه الظهور، فيكون في حد نفسه ليس بنور فيظهره شيء آخر، بل هو ظاهره ظهوره نوريته، ولو عدم الناس كلهم وجميع ذوات الحس، لم يبطل نوريته"¹⁵، فالنور ظاهر جلي لا يحتاج إلى أي شيء يظهره، لأن حقيقته في ذاته لا في غيره.

إذا فبنقسم النور إلى قسمين نور عقلي ونور حسي، فالأول هو المبدأ والثاني أثر لهذا المبدأ، أما بيان حقيقة هذا الأثر من حيث علاقته بالبناء الوجودي فذلك أمر يتضح من خلال ضبط مشكلة وجود الأجسام في هذا المذهب الروحي وفي حقيقة الحس والمحسوس، وعمّا إذا كانت المراتب الحسية التي يظهرها النور الحسي- وهو أثر للنور العقلي- حقيقية أو وهمية؟ وبالتالي كيف يتم قبول وجود الأجسام ذات الطبيعة الظلمانية مع أن النور الأوحده للوجود وما عدا النور عدم محض وأوهام؟.

وإن تم تقرير أن الأجسام وهمية أثير إعتراض آخر، وهو كيف يعمل النور العقلي على إظهار ما هو وهي عن طريق أثره الحسي وهو النور المحسوس؟¹⁶

تكلم السهروردي في نظرية النور عن مراتب الأنوار ابتداءً من نور الأنوار بوصفه الموجود الأول والظاهر الأول مارين بدرجة الأنوار القاهرة، حتى نصل إلى الأنوار المهيمنة على الأنواع والأجسام ومن بينها النور المهيمن على الإنسان، وهو الذي يطلق عليه السهروردي إسم "أسفهد"¹⁷. والمناسبة التي أفضت إلى ذلك النقد (نقد جزء من الفيزياء العلوية عند أرسطو، وعبر عنه السهروردي بأسس الفكر من حيث معايير المنطقية) هي ما تعلق بمسألة "الإمكان الأشرف" وهي: "أن الممكن الأخس إذا وجد فيلزم أن يكون الممكن الأشرف قد وجد" كما قال السهروردي وهو يشير إلى هذا التلازم الواضح بين الموجودات وعلاقتها ببعضها، فوجود الأخس يستلزم وجود الأشرف.¹⁸

ومن خلال النقد السابق للفلسفة المشائية لا يستأنف حجج الأفلاطونيين ضد أرسطو بقدر ما كان يريد تصويبه فكرة خاصة به في الفلسفة المشائية وهي تحديد عدد العقول المفارقة بالعقول العشرة المحركة للأفلاك السماوية، فهذا سيكون وجود الأشياء والإضافات المحسوسة غير مفهوم وليس له أساس.¹⁹

ويختلف موقف السهروردي عن موقف الزرادشتيين الذين يقولون بمبدأين مختلفين وذلك انطلاقاً من القاعدة الأفلاطونية المحدثة التي تقول أن الواحد لا يصدر عنه إلا واحداً، فكيف يمكن صدور المادة عن الروح أو الظلام عن النور مع تقرير وجود المادة إلى جانب الروح أو النور إلى جانب الظلام؟.

نجد السهروردي يتهرب من الثنائية التي تفسر الوجود في حين يقرر المبدأ الأفلاطوني المحدث أن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد، وهو في الوقت نفسه يجعل المادة تصدر عن الروح أو الظلام عن النور، فهناك إذا وجود ولا وجود، وبالتالي كيف نبرر وجود الأجسام ما دام اللاوجود معدنها (لأن الظلام عدم)، أي كيف نجيز أن تكون الأجسام موجودة وأن لها وجوداً حقيقياً محسوساً وهي عدم، وهذا يحيلنا إلى أن نهدم الأجسام أو أن نقيم الثنائية الوجودية.²⁰

إن نظرة السهروردي الميتافيزيقية للوجود تثير تساؤلاً منطقياً حيث ينطلق من فكرة أن الظلام لا وجوداً (عدم)، نجده من ناحية أخرى يشيد منه الأجسام وعوارضها ويقول بالجواهر الغاسقة والهيئات الظلمانية والبرازخ وما إلى ذلك، ولا يمكن تفسير هذا الطرح الميتافيزيقي إلا حين التسليم بأنه موقف لا مادي لا يعترف بوجود الأجسام إلا على أنها أوهام حسية، ونشاهدها في عالمنا الحسي. وهو هنا يربط بين التصور الأفلاطوني ونظريته الصوفية في الوصول، ويرتب للحقيقة الموضوعية منزلة سامية ترقى إليها النفس بعد التجرد من الحسيات ومجاهدة النفس في ملذاتها.²¹

يقسم السهروردي الموجود النوري إلى جوهر قائما بذاته لا يحتاج إلى غيره، و عرض أي متقوما بغيره، وينطبق نفس التقسيم على الموجود المظلم أو الغاسق.

وأما النور فهو عرضي أو جوهري، في الأول يسميه النور العارض، أما الثاني فهو النور المحض، وكذلك يسمى العرض الظلmani "الهيئة الظلمانية" والجوهر المظلم "الجوهر الغاسق"، والهيئة الظلمانية هيئة كغيرها تحتاج إلى محل ولا تقوم بذاتها والجوهر الغاسق لا يحتاج إلى محل ويستمد نوريته من غيره في حالة استضاءته وهو ليس نورا محضا أو عارضا وهو لا يدرك ذاته ولا غيره أصلا، ومن الجواهر الغاسقة الأجسام ويسمى الجسم برزخا لأنه معتم غير شفاف يحول بين شيئين، ولما كان الظلام من طبيعة البرزخ لذلك لا يؤثر في كونه جوهر غاسقا. لأن النور عارض عليه زائد على ماهيته، وبالتالي لا يمكن أن يكون النور العارض من ذات البرزخ، لأن المظلم لا يمكن أن يكون علة في وجود النوراني ولو كان عارضا، لأن جوهر العلة أشرف من جوهر المعلول، والنور أشرف من الجوهر الغاسق.²²

لا يمكن ان يكون الجوهر المظلم هو المعطي للبرازخ نورها، فالنور الذي يستضيء به البرزخ ليس مصدره برزخا آخر، بل أنوار خارجة عنه وهي الجواهر النورانية العقلية، وما يصلح عن البرازخ يصلح على الهيئات العارضة التي تتعلق بالبرازخ، فلا يمكن أن يكون البرزخ مصدرها ولا سبب وجودها، بل إنها تعود الى الجواهر النورية المجردة.²³

وعلى ذلك فإن الجوهر المظلم ليس له وجود عيني، بل هو إعتبار عقلي فقط لأن الوجود الجوهري الحق هو عبارة عن كمال ماهية الشيء حين يستغني في كماله عن المحل. والجوهر الغاسق لا ينطبق عليه ذلك. فهو ذو وجود عقلي لا يمنح هذا الجوهر وجودا فعليا لعدم وجود النور فيه وقد يعود هذا الإعتبار لإعطاء تعليل للعالم المادي بما أنه ضرورة واقعية تفرض نفسها على السهروردي، فالجواهر الغاسقة بالنسبة له وحدات ميتة لا إختلاف بينها إلا بالعوارض و المقادير و الأشكال، فهو بهذا الطرح يخرج عن الموقف الأرسطي التقليدي (موقف المشائين الإسلاميين) القائل بالهيوولي والصورة، ويتبنى فكرة المادة المطلقة التي يعتبرها هي الظلمة، وهو موقف لا مادي جديد مؤسسا على أفكار صوفية ومعطيات روحية عميقة.²⁴

بهذا نكون قد توصلنا إلى تحديد ماهية النور و مكانته ضمن فلسفة الإشراق السهروردية، وكيفيه إنتقال النور من نور الأنوار (الله) وصولا إلى العالم المادي وعلاقته هذه الأنوار ببعضها البعض في محاولة تتبعها من أعلى قمه الوجود إلى أدنى الموجودات وإعطاء نظرية الفيض النوراني معنى خاصا به، استطاع من خلاله بناء انطولوجيا نورانية خاصة.

ونجدنا هنا نلج موضوعا لا ينفك عن سابقه وهو كيف يتم صدور الموجودات عن بعضها البعض وإرجاعها إلى نور الأنوار، وكيفية فيضها عنه في محاولة لبناء ترتيب مادي وجودي واضح.

يقول السهروردي: "أن الأمر الوجداني أثره وحداني، فإن الواحد من جميع الوجوه فلا بد من إختلاف ما بين الإثنين إما بالحقيقة وإما بالعرض، إذا إختلف المعلول بالعرض فيكون هو قد أفاد العرض الغير متفق في الإثنين، وقد أفاد ذات كل واحد والعرض الذي فيه وهما مختلفا الحقيقة، ففي الجملة لا بد وأن يصدر منه مختلفا الحقيقة... وربما يمكنك أن تستبصر أنك بإرادة واحدة لا تتفرع إلى إرادات كثيرة لا يمكن أن تفعل أفاعيل كثيرة".²⁵

ثم يطرح لنا السهروردي طبيعة الصادر الأول الذي يتوسط وجوديا نور الانوار والموجودات، وهذا الصادر الأول لا كثرة فيه ولا تعترية مادة، يقول في هياكل النور: " فأول ما يجب شيء واحد لا كثرة فيه أصلا وليس بجسم فيختلف فيه هيئات مختلفة ولا هيئته فيحتاج إلى محل ولا نفس فيحتاج الى بدن، بل هو نور مدرك لنفسه ولبارئه وهو النور الإبداعي الأول لا يمكن أشرف منه، وهو منتهى الممكنات وهذا الجوهر ممكن في نفسه

واجب بالأول فيقتضي بنسبته إلى الأول ومشاهدة جلاله جوهرًا قدسياً آخر، وينظره إلى إمكانه ونقص ذاته بالنسبة إلى كبرياء الأول جرماً سماوياً وهكذا الجوهر القدسي الثاني...²⁶

ويتناول هذا الأمر في حكمة الإشراق حيث يقول: "وثبت أن أول حاصل بنور الأنوار واحد، وهو النور الأقرب والنور العظيم، وربما سماه بعض الفهلوية (بهمن) فالنور الأقرب فقير في نفسه، غني بالأول".²⁷ والدليل على أن أول صادر عن نور الأنوار هو هذا النور الأقرب هو أنه لو افترضنا صدور ظلمة عن نور الأنوار لامتنع صدور شيء بعدها ولا توقفت سلسلة الفيض الوجودية، ذلك لأن الظلمة موات والموات لا يصدر عنه شيء، والواقع أيضاً يدحض ذلك- أي انقطاع سلسلة الموجودات النورية- إذ أن هناك أنوار مشرقة، وإذن فليس الصادر الأول ظلمة. ومن ناحيته أخرى لو صدرت ظلمة عن نور الأنوار لاقتضى ذلك وجود جهة ظلمانية بذاته تعالى، وهذا مستحيل.²⁸

اذن فالنور الأول أو النور الأقرب هو النور الصادر عن نور الأنوار ولا يمكن أن يكون صدور ظلمة عن نور الأنوار لأن السلسلة الفيضية تتوقف عندها مباشرة، ذلك لأن الظلمة عدم ولا يصدر شيء عن عدم.

تختلف تسميات النور الأول الصادر عن نور الأنوار عند السهروردي فيسميها في هياكل النور بـ "النور الإبداعي" الأول لأن الأول الذي تصدر عنه الموجودات التي تحتها ويسميه بـ "النور الأقرب" في حكمه الإشراق، وفي كتابه التلويحات يطلق عليه "العقل الأول" وهي التسمية نفسها نجدها في اللمحات وفي المشارع والمطارحات أما في الرسائل الصوفية فإنه يتخذ طابعاً رمزياً، فيلقبه بـ "الشيخ" في رسالته الصوفية "أصوات أجنحة جبرائيل"، ويعطيه إسم "الجمال" في رسالته "مؤنس العشاق" تيمناً إلى مثال الجمال عند أفلاطون، وتختلف التسميات لكن الإسم واحد وهذا التنوع في التسميات يرجعه محمد علي أبو ريان إلى اختلاف مصادر التأثير ففي الكتب التي تقترب من المشائية وتلخصها يسمى الصادر الأول "بالعقل الأول" وفي الكتب التي تأثر فيها بالنزعة الإشراقية سمي "بالنور الأول"، أما في رسائله الصوفية فإنها تتفق مع القصة التي يكون أشخاصها رموزاً، لتخفي وراءها المعاني المراد الوصول إليه.²⁹

يتحدد اختلاف النور الأقرب عند السهروردي عن نور الأنوار من خلال شدة النورية، فنور الأنوار أشد في كمال النورية من الثاني وتسري هذه النسبة في جميع سلسلة الأنوار المجردة التي تصدر من النور الأقرب، فكل جوهر نوراني أقل في الكمال والنورية من النور الذي هو أقرب منه إلى النور الرفع الذي منه إشراقه. لذلك فإن المفيد أتم درجة الكمال من المستفيد، والنور المفيد والنور المستفيد يختص بهما الأنوار العارضة، فكما أن اختلاف الأنوار المجردة بدرجة النورية فكذلك يسري الأمر على الأنوار العارضة، يقول السهروردي: "إذن فالتمييز بين نور الأنوار وبين النور الأول الذي حصل منه، ليس إلا بالكمال والنقص، وكما أن في المحسوسات النور المستفاد لا يكون كالنور المفيد في الكمال، فالأنوار المجردة حكمها كذا والأنوار العارضة قد يختلف كمالها وضعفها بسبب المفيد وإن اتحد القابل واستعداده كحايط واحد يقبل النور من الشمس ومن السراج".³⁰

"فتنقسم الموجودات على هذا الأساس إلى كاملة وغير كاملة، أي يتصف النور من حيث الشدة والضعف بالكمال والنقص أو بالغنى والفقر، ولذا كل شيء يمكن أن يقسم إلى نور في ذاته وإلى ما ليس نوراً في ذاته أي ظلمة".³¹

وعلى هذا نتبين حقيقة الموجودات النورية المجردة وعلاقتها بالنور الأول وكيف تصدر عنه بالضعف والشدة، وتختلف بحسب ذلك في وجودها، وكذا علاقة الموجودات الحسية وقربها أو بعدها عن مصدر نورها، فتختلف لذلك كذلك.

ويحصل الفيض دون المساس بالمفيض أي دون نقص منه- إنفصال جزء منه- "وجود نور من الأنوار ليس بأن ينفصل منه شيء فقد علمت الاتصال من خواص الأجرام، وتعالى نور الأنوار عن ذلك، ولا بأن ينتقل

عنه شيء، إذ الهبئات لا تنتقل. وعلمت استحالة الهبئات على نور الأنوار... فهكذا ينبغي أن تعرف في كل نور شارق عارض أو مجرد، ولا تتوهم فيه نقل عرض أو انفصال جسم³²، وبذلك يتضح أن انتقال النور من المنير إلى المستنير هذا لا ينقص من المنير شيء، لأن النقصان في الأجزاء من صفة الأجسام والعوارض ويشبه ذلك بالشمس التي تنير الكون دون أن ينقص نورها منها شيء، ويذهب السهروردي في نهاية الفصل الأول في حكومة "في ابطال جسمية الشعاع" أن الشعاع ليس جسما، فلو كان كذلك لنقصت الشمس مثلا لكثرة أنوارها. ولمفارقتها لها.³³ ويقول كذلك: "أن الحكيم الفاضل زرداشت رغم أن أول ما خلق من الموجودات بهمن ثم اردبيشت ثم شهريور اسفيدارمذ ثم خرداد ثم مرداد، وخلق بعضهم من بعض كما يأخذ السراج من السراج من غير أن ينقص من الأول شيء، ورآهم زرداشت أي اتصل بهم واستفاد منهم العلوم الحقيقية"³⁴. وبالتالي فإن الفيوضات التي تصدر عن الواحد ليست ذات طابع جسماني، أن النور غير مركب من أجزاء حتى ينفصل بعضها عن بعض، بل إنه واحد بسيط وتسمى الأشعة الصادرة عن نور الأنوار والفائضة على النور المجرد بالنور السانح وهو نور عارض، وهذا النور العارض ينقسم إلى:

1- ما يقوم في الاجسام.

2- ما يقوم في الأنوار المجردة.³⁵

"وذلك لإفتقاره إلى جوهر يقوم به يكون له بمثابة محل، سواء كان نوريا أو غاسقا، وبالتالي فحصول من نور عقلي عارض أو مجرد لا يتطلب إنتقال مصدر الإشعاع أو انفصال جزء منه، بل يشترط إستعداد القابل أي المستعد للإشراق لقبول الشعاع، ويحصل لهذا القابل إشراق عقلي وهيئة نورانية في ذاته للإستعداد المقتضي لذلك، أما المشرق أي المعطي للشعاع وهو جوهر عقلي شارق، في علته جهة تقتضي ظهوره، وهذه الجهة ترجع في سلسلة العلية والمعلولية إلى نور الأنوار وهو المصدر الأول والأخير لحركة الإشراق. ويقوم إشراق الواحد على مبدأ الخيرية المطلقة".³⁶

وعليه يمكن تمييز اتجاهين للإشراق:³⁷

أ- الإتجاه الأول: وهو لا يتطلب قابلا أي موضوعا للإشراق.

ب- الإتجاه الثاني: وهو ما يتطلب هذا القابل.

فعن الإتجاه الأول يكون تشييد الوجود بصفه فعالة وبمقتضاه تنتظم سلسلة الأنوار المجردة في نظام تنازلي محكم، حيث يصدر عن الواحد النور الأقرب أو "بهمن" وهذا النور الأقرب يصدر عنه النور الثاني وهكذا تكون السلسلة النورية، أما الإتجاه الثاني فيتمثل في فيض الأشعة السانحة على الأنوار المجردة الموجودة بالفعل في سلسلة الموجودات النورانية، وهذه الأشعة لها وجه إستيمولوجي وآخر حافظ للموجودات وعامل على دوام اتصالها بنور الأنوار، ويقصد بالموجودات النورية عقول الأفلاك عند أرسطو وأفلوطين.³⁸

ويرى كوربان أن المسؤول عن وجود عالم الأنوار المحضة طبقات ثلاثة: فإنطلاقا من العلاقة الأصلية بين نور الأنوار وبين النور الأول المنبثق عنه، وبتعدد الأبعاد المدركة التي يتداخل بعضها في تركيب البعض الآخر تحدث عملية الفيض، فيفيض عالم الأنوار القاهرة الأولية بصوره ازلية، ولما كانت هذه الأنوار عللا للبعض الآخر وكان فيض بعضها منبثقا عن البعض الآخر، فإنها بذلك تؤلف ترتيبا تنازليا يسميه السهروردي بـ "طبقات الطول"، أما أنوار الأصول العلون- وهي عوالم الملائكة- ويسميا كذلك باسم "عالم الأمهات". وهذا الترتيب لعالم الأمهات الملائكي ينتهي بالوصول الى الكائن عن طريقين.³⁹

وتؤلف أبعاده الإيجابية (من القهر وإستغناء وتأمل إيجابي) نوع من الملائكة لا يكونون عللا لملائكة آخرين، ويبقون على قدم المساواة في ترتيب الفيض، هذه الأنوار تؤلف "طبقات العرض"، أي تؤلف "أرباب الأنواع" المشابهة للمثل الأفلاطونية، لا على أنها كليات متحققة، بل على أنها أفانيم من نور، ويسمي السهروردي

بعض كبار الملائكة من الزرادشتية وبعضها الآخر "كإيزاد" ترد نصا بأسمائها الحقيقية، كما يظهر في "طبقات الطول" كذلك ملاك الإنسانيه أو الروح القدس وهو جبريل أو العقل الفعال عند الفلاسفة.⁴⁰

ومن جهة ثانية فالأبعاد المدركة السلبية (كالإفتقار، والإشراق السلبي والعشق والشوق) كلها تؤلف "كرة الثوابت" بإشتراكها فيما بينها، لتؤلف مجموعة كواكبية لا تحصى. ويفيض في الأخير عن سلك كبار الملائكة هذا سلك جديد من الأنوار يسيطر فيه الملائكة الكبار المثاليون على الأنواع ويسيرون أمورها، على الأقل فيما يتعلق بالأنواع العليا، ويشير إليها السهروردي بأنوار "اسفهد" (أي قائد الجيوش).⁴¹

ومن خلال ما تقدم نجد الربط العميق الذي استطاع به السهروردي الجمع بين فلسفه الأنوار وانعكاساتها على بناء العوالم الوجودية، ابتداء من عالم الملائكة ووصولاً إلى عالم البرازخ.

لقد غير السهروردي التصور الحاصل للكون في جانبه الطبيعي والميتافيزيقي الذي تبلور في المشائية الإسلامية مع الفارابي وابن سينا، حيث لم يعد فلك القمر هو الحد الفاصل بين العالم السماوي والعالم المادي بل جعل كره الثوابت هي الحد بين العالم الملائكي عالم النور والفكر (روح آباد) وبين العالم المادي المظلم عالم البرازخ.⁴²

وبالتالي يوضح لنا السهروردي بناء العالم خلال تقسيمه إلى أربعة عوالم لكل منها خصوصيته وهي:⁴³

- 1- عالم العقول المحضة: (يعني بها الأنوار الملائكية الكبرى للسالكين الأولين والعقول الكروبيون، والأُمّهات والعقول المثالية) وهو عالم الجبروت.
- 2- عالم الملكوت: ويقصد به عالم الأنوار التي تدبر أمر جسم من الأجسام (صيصية مفرد صياصي) أي عالم الأنفس السماوية والأنفس البشرية.

- 3- عالم الملك: وهو البرزخ المزدوج المتألف من الكواكب السماوية ومن عالم عناصر ما دون القمر.
- 4- عالم المثال: الذي يكون متوسطاً بين العالم العقلي لكائنات الأنوار المحضة وبين العالم المحسوس، ويتم الوصول إليه عن طريق المخيلة النشيطة، وهذا العالم هو عالم السور والمثل المعلقة وليس عالم المثل الأفلاطونية، ويقصد بالمثل المعلقة المثل التي ليست حالة في قوام مادي (كاللون الأحمر يحل في الجسم الأحمر)، بل إن لها مظاهر تتجلى فيها الصورة في المرأة، فهو عالم نجد فيه التنوع والغنى كل ما يحويه العالم المحسوس، لكنه يختلف معه في ماهيته، فهو في حالة لطيفة، فهو عالم من الصور والظلال الدائمة، المستقلة، الذي يمثل عتبه لدخول عالم الملكوت حيث نجد فيه المدن الصوفية: جابلقا وجابرص وهورقليا.

- خاتمة:

وفي الأخير نكون قد وصلنا إلى تركيبة العالم في التصور الإشراقي عند السهروردي، إنطلاقاً من عالم النور المحض ووصولاً إلى عالم الحسيات والأجسام وذلك من خلال نسقية إشراقية تبدأ بنور الأنوار ثم النور الأول وكيفية الصدور والفيض عنه إلى بقية الأنوار الأخرى وما يلزمها من موجودات وبرازخ، فتميزت فلسفته بتقديم ونحت مفاهيم إشراقية خاصة به، متجاوزاً بذلك كل الفلسفات السابقة انطلاقاً من المشائية الأرسطية والأفلاطونية والمشائية الإسلامية، مضيفاً لها تأسيساً من التراث الفارسي المشرقي القديم، من هرمس وزرا دشت وكل الفلاسفة المتأهلين.

- قائمة المصادر والمراجع:

- السهروردي، مجموعة مصنفات شيخ الإشراق- حكمة الإشراق، تقديم وتصحيح: هنري كوربين، 1953.
- السهروردي، هياكل النور تحقيق: محي الدين صبري الكردي، ط1، مصر: مطبعة السعادة، 1916.
- محمد علي أبو ريان، أصول الفلسفة الإشراقية، ط1، مكتبة الانجلو المصرية: القاهرة-مصر، 1959.
- محمد حسين بزي، فلسفه الوجود عند السهروردي (مقاربة في حكمة الإشراق)، ط1، دار الأمير للثقافة والعلوم: بيروت-لبنان، 2009.
- جلال الدين الدواني، شواكل الحور في شرح هياكل النور للسهروردي، تحقيق: محمد عبد الحق، ط1، بيت الوراق للنشر المحدودة: بغداد-العراق، 2010.
- هنري كوربان، تاريخ الفلسفة الإسلامية، تر: نصير مروة، ط2، عوידات للطباعة والنشر: بيروت -لبنان، 1998.
- شمس الدين محمد شهرزوري، شرح حكمة الإشراق: تصحيح وتحقيق حسين ضيائي تربتي، مؤسسة مطالعات وتحقيقات فريسي- طهران، 1952.
- عبد الرحمن بدوي، شخصيات قلقة في الإسلام، ط2، دار النهضة العربية: القاهرة-مصر، 1964.